غزة الشاهد

كما تراها صحف عالمية

اتخذت الصحافة الغربية ، في معظمها ، موقفا منحازا ضد المقاومة الفلسطينية عموما ، ولكنها بصورة خاصة ضربت نطاقا من الكتمان والصمت حول وضع قطاع غزة المحتل ، حيث كانت المقاومة الباسلة ناشطة كاقوى ما يكون ، وحيث يذل اهالي القطاع الشجاع من التضحيات ما ينوء في حقيقة الامر ، تاريخ المقاومة في العالم بأسره.

ومنذ اسابيع قليلة بدا أنه من المستحيل ان تستمر الصحافه هذه في صمتها المشبوه الذي استطال اكثر مما يحتمل حتى الضمير المهني المأجور ، ذلك ان ثلاث سنوات ونصف من التجاهل المطبق لا يمكن ان تستمر ، خصوصا عندما يعجز هذا التجاهل عن التقليل من المقاومة.

بالطبع ان المعالجة التي بدأت بوادرها تظل في الصحف الغربية ، او بعضها ، ما تزال منحازة، ولذلك تنبغي قراءتها بكثير من الحذر والانتباه، وسوف نلاحظ مثلا في احدى المقالات صحفيا « بنسي » ، وهو يعدد حوافز المقاومة المحتدمه في غزة ، ان يذكر السبب البديهي الاول ، وهو الاحتلال الاسرائيلي !

ولكن ايضا يتوجب علينا ان نقرا بعناية شديدة جملة من هذا الطراز : « ان الافتراض العادل هو ان الاسرائيليين يتبعون التكتيك الكلاسيكي لاي قوة احتلال في السعي لتنغير السكان المحليين من المقاومة المحتدمه » فمثل هذه العباره التي وردت على لسان روبرت غراهام في « الفاينشال تايمز » (٣ - ٢ - ١٩٧١) لتغير حوادث القتل المتصاعد للعرب في القطاع المحتل ، تعني في الواقع الكثير جدا من المعاني ..

وخلال الاسبوع الماضي ظهرت ثلاثة مواضيع عن غزة في الصحف الغربية : اللوموند الفرنسية، والفاينشال تايمز البريطانية ، والنيويورك تايمز الامريكية ، وبوسعنا القول ان المقالات الثلاث مكتوبة من خلال الولاء التقليدي الذي يعطيه المراسلون الغربيون اجمالا ، وصحفييهي معظمها ، لاسرائيل ، ومع ذلك فان فداحة الاحداث ذاتها ، وتعاظم الحقائق التي لم يعد بالامكان (بعد ٣ سنوات من الصمت القذر) التقاضي عنها ، قد جعلت هذه المقالات تحل في طياتها صورة فيها ملامح من حقيقة الاوضاع ، لا يمكن اخفاؤها تحت سيل الاكاذيب التي وردت في المقالات ذاتها ...

شهادة صحيفة فرنسية

يقول « امنون كابليوك » ، الاسرائيلي الذي يراسل صحيفة اللوموند الفرنسية من تل ابيب ، في مقال له نشرته اللوموند في ١٧ - ١٨ كانون الثاني ١٩٧١ :

« منذ زمن طويل لم يعد يرى اي اسرائيلي في غزة ، باستثناء الجنود وبعض الموظفين المدنيين الذين يعملون لدى قيادة الجيش ... وقد توقف منذ زمن طويل سيل السواح الذين كانوا يتدفقون بعشرات الالوف ، ان عدة قنابل عديدة قد انهت هذا السيل ... وغيب فقط اللافتات العبريه التي امر الحاكم العسكري الاسرائيلي جميع التجار بوضعها فوق محلاتهم ، وتبدو اللغة الخطيه التي كتبت بها هذه اللافتات، وكانها نوع من الاحتجاج الصامت على الاحتلال.

ان غزة في فوران دائم منذ حرب حزيران ،ومنذ توقف اطلاق النار على القناة ، وكذلك منذ الصدام بين الملك حسين والفدائيين في ايلول الذي ادى الى تجمد الجبهه الاردنية ، اصبحت غزة ، مع الحدود اللبنانيه ، القطاع الوحيد الناشط عسكريا ..

وتزداد الاصطدامات مع دوريات الجيش الاسرائيلي يوما بعد يوم ، وتنصب الكمائن بانتظام للعربات الاسرائيليه ، المدنيه منها والعسكريه ، ولم يعد من الممكن احصاء الهجمات بالقنابل اليدويه في المدنه ..

... وعندما اعلن الفدائيون الاضراب حدادا على يوسف الخطيب ، القائد المساعد للجناح العسكري في الجبهه الشعبيه لتحرير فلسطين، لم يجرؤ (!) اي تاجر على فتح متجره ، ان اهالي غزه يتجاوبون مع حملات التبرع التي تقوم بها المنظمات الفدائيه ... ويبدو الان ان الاهالي ينفذون اوامر التنظيمات شاؤوا ام ابوا ..

وباستثناء (العمل في اسرائيل حيث وصل عدد العمال العرب من غزة في اسرائيل الى ٨ الاف) فان الفدائيين يشعرون بانهم كالسمك في بحر الجماهير ، فهم يجدون المسكن والغذاء في كل منزل ، واذا افلتوا بعد القاء قنبله بدونه يعدم لهم الاهالي المأوى دون تردد ، ولا يفكر احد بالافشاء عنهم ...

وتشكل مخيمات اللاجئين ومدارس الوكاله الخزانات التي لا تنضب ، حيث تجند المنظمات مقاتليها . هناك حوالي ٢٢٠ الف لاجيء في القطاع من اصل مجموع السكان البالغ عدده ٣٦٠ الفا.

قال لنا احد مثقفي غزة : « هذا التجمع الهائل للاجئين ، الذين ليس لديهم ما يخسرونه سوى اكواخهم البائسة ، والوضع المتردي المهين على القطاع ، وعشرون عاما من التربية الوطنيه هي التي نفسر اختلاف الاوضاع بين غزة والضفه الغربيه ... لقد اعادت لنا المنظمات الفدائيه كرامتنا ، قبل الان كنا مجرد « قضايا اجتماعية » اما اليوم فقد اصبحنا ، بفضل ابو عمار ،شعبا يسعى وراء وطنه الذي لن نتخلى عنه ابدا... وكثيرا ما سردد هذه الجملة في غزة بالرغم من ان اسم عرفات لا يذكر دائما ، ففي الحقيقة ان الجبهة الشعبية في غزة هي الاقوى ، وهي التي تبذل النشاط الاوسع » .

وصف من مراسل بريطاني

وقالت « الفاينشال تايمز » البريطانية :

« كل المحلات مقفلة على طول الطريق الرئيسي الى غزة . عدد قليل منها يظل مفتوحا في بقية المدينة . فمعظم هذه المحلات مقفلة منذ اكثر من شهر في اضراب احتجاجي . الشوارع مقفرة تقريبا الا من سيارات الدوريات المصفحة التي تجل جنودا اسرائيليين . وهناك حظر تجول مشدد في جزء من المدينة ، حول مخيم اللاجئين الرئيسي . بايجاز ، ان في غزة كل مظاهر المدينة المحاصرة : من السوق تنبعث الاصوات المخنوقه لآلات الحفر التي تعمل في اجتثاث الاشجه ، بينما ارتاح اسلاك الطاقه الكهربائية مقفله بالاسمنت لحمايتها من الاعمال التخريبية.

هكذا بدت المدينة في الاسبوع الماضي . وقد ازدادت مظاهرها جهما بعد حادثة يوم الاثنين المروعه ، عندما انفجرت قنبله في مركز البريد الرئيسي . فقد اصيب ٦١ عربيا من بينهم ١٨ امرأه و ٥ اطفال . وسجلت الحادثة تصعيدا اخر في محاولات الفدائيين الفلسطينيين لمضايقه السكان المحليين (؟) ، والتي تثير بدورها ، رده فعل مساويه في العنف من قبل الاسرائيليين، لهدنه القطاع .

فمنذ عام ١٩٤٨ وقطاع غزة معروف بغياب القانون فيه ـ وهذا ليس فيه ما يبعث على الدهشه . فعلى لسان من الارض في اسفل اسرائيل ، تجمع ٣٦٥ الف نسمه من السكان، تتلاشى من اللاجئين الفلسطينيين ، في مساحه طولها ٢٥ ميلا وعرضها ٦ اميال ، معروفه بـ « القطاع » . وهنا تتعكس المشاكل المتراكمه التي افرزها الصراع العربي ـ الاسرائيلي ،في اكثر صورها بؤسا . لقد كان القطاع مصدر قلق دائم للسلطات المصرية التي كانت تدير القطاع . وهو اليوم مازق رئيسي للاسرائيليين. وقد تردت فيه الاوضاع بشكل تصاعدي ، خلال الاشهر الست الاخيرة » .

هكذا بدأ روبرت غراهام ، مراسل «الفاينشال تايمز » (٢ شباط ١٩٧١) تحقيقه عن « المازق الاسرائيلي في قطاع غزة » . وهذا التحقيق هو الثاني من ثلاثة تحقيقات كتبها غراهام للصحيفة، عن الشرق الاوسط ، بعد عودته من جولة فيه، واذا كان الانحاز لاسرائيل والتحفظ الملحوظ في الطرق التي تمارسان سلطات الاحتلال ،ميزة الحقيق الذي كتبه ، الا انه يعترف بالوجود المعاظم لحركة مقاومه الاحتلال في القطاع ، التي بدات مع تصعيد عملياتها ، في تعزيق جدار الحصار الاعلامي الذي تفرضه اسرائيل على القطاع .

نشاط متزايد للمقاومة

يقول غراهام ان الفدائيين العرب من وجهه النظر الاسرائيلية ، يزدون نشاطهم باطراد لانهاك قوات الاحتلال،ويدخلون شؤون التجار وشجعون العصيان المدني ، ويقومون بعدد متنامي من عمليات الاغتال ، وعمليات الهجوم والضرب بالقنابل اليدوية ضد السكان المدنيين » ، كما يزعم . ويضيف بانهم في عام ١٩٦٩ قتلوا ١٩ من سكان القطاع وجرحوا ٢٥٤ ، وفي العام الماضي قتلوا ١٠٣ وجرحوا ٦٢٣ ، وفي شهر كانون الثاني الغالب استمرت هذه العمليات في كامل قوتها ، ومنذ ثلاثة اسابع قام الاسرائيليون بتنفيذ خطه امن شامله لاجتثاث العناصر الفدائية واعاده « درجه من الحالة السويه » الى القطاع. فتحرك الى القطاع وحدات خاصة من شرطة الحدود ، وفرضت حظر تجول على مخيم « الشاطىء » ، مخيم اللاجئين الرئيسي لمدينة غزة ، وتم اعتقال عدد غير معروف من الشبيبة بهم .

اما من وجهه النظر العربية ، يقول غراهام، فان الفدائيين في القطاع يتمتعون حرجا كبيرا للاحتلال الاسرائيلي لاراضي عربية « في وقت تم فيه احتواء النشاط الفدائي على طول الحدود مع لبنان ، وفي وقت نمت فيه تصفية الفدائيين عملياً في الاردن » .

ويضيف غراهام قائلا : « ان الفدائيين ليسوا بانه من الصعب ضربهم وتحطيمهم ، لان للقطاع جيش التحرير الفلسطيني منحركزتان في القطاع، منذ عام ١٩٦٧ . ومنذ ذلك الوقت وهناك الفرقتان تعززان بنجاح بوحدات تصل عن طريق البحر من لبنان ، من قرية المرفند (!) ، وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المنظمة والمسؤولة عن عمليات خطف الطائرات في الماضي ، اكثر فصائل المقاومة نشاطا ، اما جماهير المدنيين فهي العالقة بين التحدي الفدائي وبين الاجراءات الاسرائيلية الصارمة » . فهناك ١٧٠ الف نسمة في المخيمات (في رفح منهم ٤٩ الف نسمة في ما يقال انه اكبر مخيم لاجئين في العالم .) وهناك ٢٤٠ الف نسمة يعتمدون في الاعاشة من وكالة الغوث ـ الانروا ـ التابعة للامم المتحدة . لذا ، يقول غراهام ، فان معظم السكان قد اصبحوا عملياً ، لاجئين بالهبة ، واهداف الفدائيين ، فانهم من دون شك ، يعيشون في خوف . ويشير غراهام الى كون المقاومة قد امرتهم باغلاق محلاتهم ، بينما هم ان فعلوا ، يخاطرون بدفع غرامة تتراوح بين ٢٨ و ٦٠ استرلينيا ، للاسرائيليين ، والعمال الذين يحصلون على رزقهم من العمل في اسرائيل، يذهبون في باصات مشبكة النوافذ كحماية من القنابل اليدوية .

ويقول غراهام : « قال لي ملاك لمشغل اثاث : لا اعرف ما اذا كان احد من عمالي يعمل مخبرا للاسرائيليين ، او للفدائيين ، لدي جواز مرور للتنقل في اسرائيل ، ولا اعرف ما اذا كانوا يعطونني باني اخبر عنهم للاسرائيليين » . ويقول غراهام على ذلك بقوله ان هناك اضطراب عظيم من الخوف ، ان احدا لا يريد ان يعمل اي شيء قد يبدو ان له علاقة اما بالاسرائيليين او بالفدائيين . وشعر المراسل ان السلطات قد طردت منذ عدة اسابع المحافظ راغب العلمي المعين من قبل السلطات المصرية ، ولكن احدا لم يتقدم لشغل مكانه ، كذلك ليس هناك اي شعارات فلسطينية على الجدران ، كما انتزعت صور الرئيس الراحل عبد الناصر ، اما المدنيون الاسرائيليون ، فانهم يخافون دخول غزة .

الصحافي الجبان و « ايجابيات » الغاشست

ثم يقول غراهام ان الوضع في القطاع وعملية الاسرائيلية الحالية لا تستطيع ادعاء اهميه رئيسة فيما يتعلق بسوريه في الشرق الاوسط ، ولكنها ليست بغير اهميه . فمن جهة ، انها تشير بان الانتصار العسكري في ١٩٦٧ حمل الاسرائيليين مشاكل بعد تلك الى حلها الانتصار . وقد يكون ما هو اكثر اهميه ان عمليه في غزة قد ابرزت مازق اسرائيل في التعامل مع الاراضي التي احتلتها بعد حرب حزيران . ان اسرائيل لا تستطيع ان تسمح لنفسها بان تبدو بمظهر في قدرتها على احتمال النشاط التخريبي في غزة والسماح به ، وذلك لما يكون فيه من تشجيع لسكان الضفه الغربيه ولحركة المقاومه بشكل . ولكن الاجراءات القمعيه الموازنه لها ، تميل نحو اطلاق النار او احباط معمول اي مظاهر اجابية للوجود الاسرائيلي ، على حد زعمه .

هنا يحاول غراهام التحدث عن المظاهر الايجابيه للوجود الاسرائيلي في القطاع ولكنه لا يستطيع ان يقول اكثر مما يلي : « لقد كانت قدرات الانروا ان ٣٠ الفا فقط من اللاجئين في القطاع قادرون على اعاله انفسهم ، بينما النقطة نفسها تستطيع ان تعيل فقط واحد من كل خمسة من السكان ، وذلك من مواردها الزراعية الصغيرة الركزة حول انتاج الحمضيات . واراء هاشمي » . ثم يضيف مجاهلا عامل الاحتلال ، قائلا : « ان المشاكل هي خلط ترثي له من الحرمان والانفجار السكاني وفقدان السلطة ، التي تجمعت عبر سنين من الاهمام غير المناسب، لعزل جوا من الاستياء الغاضب ، ورغم انه في وسط العالم العربي ، فان قطاع غزة قد عزل عن البلدان العربيه بسبب الحرب العربية ـ الاسرائيلية عام ١٩٤٨ ، ومنذ ذلك الوقت والقطاع ارض لاجئين محاطه بارض اجنبية ، وغير قادره ان تعد نفسها باسباب الحياة » .

ويقول غراهام ان الاسرائيليين ، مثاليا ، بودون لو نقلوا جزءا من السكان اما الى الضفه الغربيه او الى شمالي سيناء حيث توجد هناك اراضي يمكن ان تكون صالحه للزراعة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، على حد قوله ، لانه من شانه خلق احتجاج دولي عنيف . ويشير بانه كان هناك حل اقل شعبيه بانضمه الاسرائيليون ،وبدعو الى دمج السكان مع اسرائيل ، ثم يضيف قائلا ان اي دوله عربه لم تظهر حتى الان اي اهتمام كبير بسكان القطاع .

« النيويورك تايمز » : غبار غزة

وتحت عنوان « قبل الاشهاء العرب وكبرة الاسرائيليين » تنمو في غبار وباس غزة » كتب بستر غروس تحقيقا عن الوضع في القطاع ، في لصحيفه « نيويورك تايمز » الامريكيه بتاريخ ٢ شباط ١٩٧١ ، وفيما يلي اهم ما جاء في هذا التحقيق ..

« ان الاول من كل شهر هو يوم دفع الاجور لـ ٧٢٥٠ من العرب المحليين الذين يخططوا الاعتبارات السياسيه القديمه ، ويداوا في العمل مقابل اجور عاليه ، في المعامل الاسرائيلية على بعد رحله قصيره بالباص على الساحل الموسطى، من هذه المدينه . كانت المصارف المحليه بالطبع ، مع المودعين يقفون في صفوف طويله تصل الى الشارع ، عندما دوى انفجار بعد قليل من الساعه التاسعه صباحا ، في مصرف الوفير البريدي في المدينه . وداعى سناء الاسمنت على الجمهور، جرح سبعون عند الطاوله الطويله في المصرف ، ثمانيه منهم كانوا على وشك الموت » .

هكذا بدأ بيتر غروس تحقيقه ، وبالطبع ما كان ليبدأ الا هكذا ، والعنوان المختار كان انذارا ، بان تحقيقا في « نيويورك تايمز »سيركز لقابانه الدعائيه المضاده على هذه الناحيه الحساسه جدا من المقاومه المعاظمه في غزة ،ضد الاحتلال الاسرائيلي وشتى الوسائل التي يتبعها لدمج القطاع ، وخلق علاقات واوضاع « الامر الواقع » للاحتلال . ولكن في الحقيق توجد معلومات هامة عن الوضع في القطاع ، وضع المقاومة ، والنفسيه السائدة ، ووضع سلطات الاحتلال ، جديرة بالتسجيل .

يقول غروس ان القطاع هو المسرح الذي يجري فيه المآسي الاولى للفلسطينيين الذين هم دون وطن ، « للزائر » فان النفسية السائده في غزة ، هي شعور بالعجز ، ينمو عند منعطف كل زاوية في الطرقات القذرة المغبرة »

ثم يتحدث غروس عن الصعوبات التي تواجه قوات الاحتلال الاسرائيله في سعيها المواصل لتحقيق مخطط الدمج ، فيقول : « ان الاسرائيليين يعتقدون بان لديهم الحل لمشكله قطاع غزة ، وذلك عبر « الدمج والتطوير الاقتصادي » ، ولكن ذلك يحتاج الى وقت كما يطلب المسلامه اليومية الاساسيه ... لقد ازدادت الامور سوءا في الاشهر الاخيره من العام الماضي ، باعمال الارهاب والقتل التي تسجل كل يوم تقريبا ، بحيث ان الوزارة الاسرائيلية صونت في يوم ٣ كانون الثاني الماضي على سلامة امن صلبه جديدة » .

ويقول غروس عن هذا القرار للوزارة الاسرائيلة ، بانه اعتبر او انعكاس او نقض لما تسمى بـ « سياسة الاحتلال الليبرالية » التي اسهلها وزير الدفاع ، دايان ، في الايام الاولى بعد حرب حزيران ، ١٩٦٧ . فقد تضاعفت قوات الحاميه العسكريه في غزة ، ومع سريان قرار وقف اطلاق النار على جبهة قناة السويس ، استطاع الجيش الاسرائيلي ان يوفر القوات .

استدعيت الى مدينة غزة ، وحده من قوات شرطه الحدود ، تسمى « ذوي القبعات الخضر الاسرائيلية » ، مسلحة بالهراوات ، ووضعت مخيمات للاجئين كاملة ، تضم حوالي ٢٠٠ الف نسمة ، تحت حظر تجول لمدة ٢٠ ساعة في اليوم. وبدأت دوريات من الشرطه ومن الجيش ، عمليات تفتيش عن الاسلحة ، بالتفتيش بيتا بيتا ، اما عن السلاح او عن اعضاء معروفين ، من خلال المقاومه الفلسطينيه .

« اما نتائج هذه السياسه الامنيه الجديده ، فيقول غروس ان بعد مرور شهر على تطبيقها لوحظ انخفاض ملموس في عدد حوادث الارهاب، رغم ان الضباط الاسرائيليين متفقون حول مدى اهميه هذه النتيجه . اما ثمن هذه السياسه ، يقول غروس ، فكان اتهامات صارخه بالوحشية والتعذيب وتكتيكات القساتو ، من منتقدين ، بدءا من السار الاسرائيلي ، الى وكالة ناس الوطنية ! ... « واتخذ الجيش خطوه غير عاديه بتعيين ضابط له رتبة عاليه لرئاسه تحقيق في الاتهامات ، ووعدا بالكشف الكامل والعقاب » .

ثم ينتقل غروس الى الحديث عن الانجسار في مبنى البريد ، فكشف اجابا هاما يتعلق بوقت العمليه . فالاول من شباط (تاريخ كتابه هذا التحقيق) كان اليوم الاول الذي رفع فيه حظر التجول عن مخيم الشاطيء للاجئين ، في غزة ، وذلك خلال ساعات النهار . وفي الصباح الباكر من ذلك اليوم دعا البريغادير جنرال شلوموغازيت ، الضابط المسؤول عن اداره كل الاراضي التي تحتلها اسرائيل ، بعض المراسلين الاجانب الى مرافقته لمشاهده غزة تحت نظام حكمها الجديد ، وكانت المحطه الاولى في جوله الباقي للاحتلال الاسرائيلي ، التي لم تكن في البرنامج ، مكان الانفجار في مبنى البريد ! كان المكان مغمرا الا من رجال الحفظ الناعمين للشرطة والجيش، وذلك بعد اقل من نصف ساعة على وقوع الحادث.

وعلم المسجونون فيما بعد ان رجلا وصل يحمل طردا صغيرا بدا الدخان يتصاعد منه ، وراح يحذر البعض بالابتعاد .

هنا يقول غروس ، ان الغابه من ذلك ، وان كانت تخمينا ، فهي الوحيدة الجلية : « هي منع العمال من الاعتماد على المال الذي يكتسبونه من اسرائيل ، وتذكير كل واحد انه مهما كانت تحفظات الشرطة مشددة وصارمة ، فان احدا في الواقع لا يستطيع على غزة » .

ثم ينتقل غروس الى الحديث عن « الحل » الاسرائيلي للقطاع ـ حيث يتجمع ٤٠٠ الف نسمة على الارض الزراعيه لقطاع غزة ، وحيث كان يعيش ١٠٠ الف نسمة قبل تدفق اللاجئين في عام ١٩٤٨ ـ فيقول ان الحل الاسرائيلي اليوم هو « في تشجيع اللاجئين بالتحرك والانتقال الى امكنة اخرى - الى وظائف في الضفه الغربية لنهر الاردن ، الى اسرائيل لعملهم ، او الى دول عربية اخرى » . ثم يضيف قائلا : « ولكن كلما طرح هنا الاقتراح رسميا ، فانه يثير موجة من الاحتجاج من العواصم العربية ، وحتى عرب الضفه الغربيه يتذمرون عندما يصل الفزيون .

ورغم ذلك فان هناك حوالي ١٠ الاف من غزة يعملون في منطقه الضفه الغربيه ، على اساس يومي او اسبوعي » .

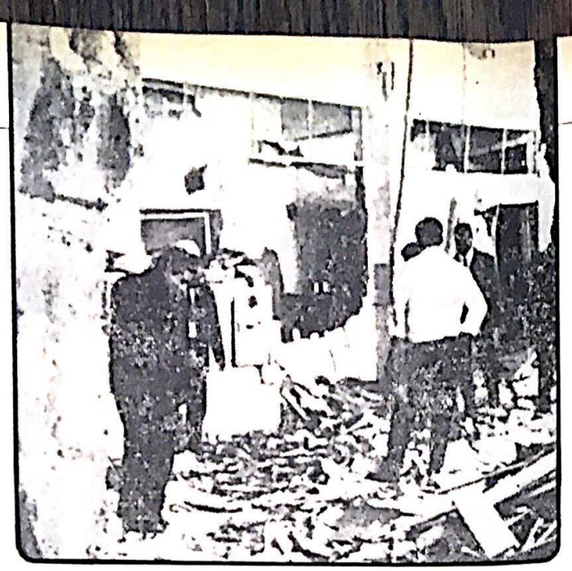

حطام مركز البريد المركزي في غزة ...